جماليات الأسلوب واستراتيجيات التأويل
قراءة في نموذج شعري لبدر شاكر السياب

د/ صفية طبني
جامعة بسكرة

الملخص :

تحاول قصائد السياب مكاشفة المعنى من خلال أساليب تغذت من ثقافات متنوعة ،فاللغة الشعرية ملهمة التواصل ، فهي تنقل المعاني بقوة موسيقية تصويرية تنبيء عن موهبة الشاعر، و السياب شاعر موهوب، مجدد، لذا بدا اسلوبه مفعما بالعبارات المليئة بالحياة، والأخرى الموحية للتشاؤم ،وقصيدته "المومس العمياء" هي نص وضح لنا الأبعاد الجمالية للغته فمزج بين الألفاظ والعبارات الكاشفة للمعنى ،والانزياحات الدالة على نفسية الشاعر وفكره

Abstract :

Poems Sayyab trying showdown meaning through methods fed from a variety of cultures, language is poetic inspirational communication, they convey meanings musical strongly graphic predictors for talented poet, and Sayyab poet talented, refurbished, so he started his style full of expressions full of life, and other suggestive of pessimism, and his poem "prostitute blind "is explained to us the text of the aesthetic dimensions of the language he mixed between words and phrases floodlights of meaning, and the offsets function on the psyche of the poet and his though.

مقدمة:

إن دراسة اللغة هي محاولة منهجية، ترتكز على فهم النص من خلال ألفاظه وتراكيبه، من أجل إدراك قيمه الفنية الداخلية المكونة لبنيته وهي في مجملها تتحول لتكون لنا شحنات دلالية من أجل التأثير، لأنها تعتبر الوعاء الفكري للماضي والمستقبل والحاضر. إلا أن لغة الشعر وتختلف عن لغة النثر لأنها تخضع لقيود لا تخضع لها اللغة النثرية".[1]

وبهذا تكون اللغة هي أول الظواهر التي يجب على الدارس الوقوف عندها في حديثه عن القضايا الفنية في الشعر، وهذه الأداة اللغوية أيضا:" تختلف عن اللغة الإخبارية في حياتنا اليومية، أو لغة التحليل العلمي لأنها تنقل المعاني، بل توحي بها من خلال الطاقات الموسيقية التصويرية التي يمنحها لها الشاعر الموهوب".[2]

واللغة ظاهرة اجتماعية بأساليبها ونبراتها يكتسبها المرء من البيئة وتبقى في النمو مادام المرء ملتصقا ببيئته وهو يحتاجها دائما بما أنه ينقل أفكاره إلى الآخرين، فهي إذا شرط من شروط تواصله مع أبناء جنسه، فرقيها "انعكاس لا صحابها وترتبط ارتباطا جدليا بالوسط الذي تستخدم فيه، فإذا ارتقى هذا المجتمع ارتقت لغته، وإن تخلف انحدرت لغته".[3]

وشاعرنا السيَّاب من خلال قصائده بدا شاعرا موهوبا فجرت التجارب قريحته، وسوف نكشف من خلال نموذج له وهي قصيدة "المومس العمياء" مدى تلوين الشاعر للغته وحفاظه على مقوماتها، وكذلك درجة تجديده لها. فالسياب قد تلون وتقلب بين الإقبال على الحياة والنفور منها، وأراد في كلا الحالتين أن يبين موقفه فيعطي مبررات للتشاؤم ومبررات للتفاؤل وبذلك استطاع أن يعطي لنا ألوانا من التعابير لا نستطيع أن نلحظها إلا بعد إستكناه النص, فتسمح لنا بذالك إلى تأويله.

سوف نركز على دلالة اللغة لتبيان إلى أي حد يمكن لها أن تساهم في إيضاح التجربة الشعرية لدى بدر شاكر السياب ذلك آن :" كل شاعر ينتمي أساسا أو يجب أن ينتمي إلى لغة لا بالمعنى المعجمي وحسب وإنما بالمعنى الشعري أيضا، ولذلك يجب أن ننظر إلى تجربته عبر هذه اللغة وعبر أبعادها الجمالية خصوصا".[4]

وبهذا تكون البداية بالألفاظ:

I-الألفاظ:

إن التعبير بالكلمة يعتمد أساسا على طريقة التعامل مع اللفظة تعاملا يجعل هذه

اللفظة مليئة بالحركة، مما يؤدي بها إلى أداء وظيفتها التعبيرية من خلال تلك العلاقة، والكلمة في اللغة "علامة صوتية، هي تنطق ثم تكتب.. الكلمة شيء ما موجود في العالم الخارجي، وتكتبها تصبح داخلية لمجرد أن يتلقاها الشعور فتصبح صورة".(5)

يقول السياب:

الليل يطبق مرة أخرى، فتشريه المدينة

والعابرون إلى القرارة، مثل أغنية حزينة

و تفتحت كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق

كعيون ميدوزا، تحجر كل قلب بالضغينة(6)

إنه من السهولة بمكان معرفة كلمات الشاعر ضمن القصيدة وليست مستقلة عنها، فالمعنى الذي عرفناه من خلال هذه الأبيات لم نكن لنعرفه لو لم تكن هذه الألفاظ داخل هذا النظام، فالشاعر طبعا لا يريد بالليل الظلام، فإذا دققنا النظر في السياق نجده يحدد لنا المعنى المقصود ويزيل عنه الغموض ، فالذي أراده بالليل هو الظلم والاستبداد. فأعطي السياق للكلمة رونقا ؛ذلك أن أخرجها من معناها الحقيقي المعجمي إلى معنى آخر مجازيا، دلت عليه قرينة حالية وهي الظروف التاريخية للبلاد (العراق).

يحاول الشاعر دائما أن يصور أحاسيسه ويجسدها فيظهر لنا المعنى المقصود من خلال السياق، إن إبعاد أثار الظلام عن المدينة هي حصانة لذات الشاعر فهو يحاول أن يبعد عن نفسه ومدينته أثار الظلم والاستبداد. وبهذا فقد أدى السياق دوره في احتضان معاني الألفاظ وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: "ولقد اتضح اتضاحا لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفرد، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه... ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر".(7)

يقول السياب أيضا:

والله- عز الله- شـــاء.

أن تقذف المدن البعيدة والبحار إلى العراق.

ألاف آلاف الجنود ليستبيحوا في زقاق.

ودون الأزقـــة أجمعيـن.

ودون آلاف الصبايا،بنت بائعة الرقاق. (8)

هذا المقطع من القصيدة، يتجسد من خلال ألفاظه الإحساس بالوطن وما آل إليه إنه يوحي إلى الاستعمار الذي سلب خيرات بلاده واستباح كرامة أهلها وبالتالي تكون كلمة (عراق) التي ذكرت في هذا المقطع تثير في نفس الشاعر الشعور بالتفجع، إن شاعرنا السياب لا يفتأ يبحث في قاموسه الخاص عن الكلمة التي يكمن فيها معنى خاصا، حتى يهتدي إليها فيوظفها جاعلا لنفسه قاموسا من الألفاظ، إلا أن هذه الألفاظ لا تفرض نظاما خاصا للنص إنها في: " الحقيقة لا تفرض شيئا، إنها تخلق النص، أو بالأحرى ان النص يتخلق في رحمها ويكون كما شاء الله أن يكون".(9)

فالموقف الذي كان يعاني الشاعر منه هو الحسرة والألم، والحنين إلى الوطن آمن يبحث الشاعر فيه عن ذاته يقول:

ماذا تريد وعما تبحث في الوجوه؟ ويا أباها
أطعن بخنجرك الهواء .... فأنتما لن تقتلاها
هي لن تموت.....(10)

يتضح من خلال السياق أن الشاعر في غربة نفسية فهو غير مستقر، لأنه ناقم عن الوضع غير راض به، إن المقصود في هذه الأبيات هي "العراق". فالضمير المتصل (ها) يعود عليها وتلك الطعنات ما هي إلا محاولة فاشلة، فالشاعر لا يريد أن يكون مصيرها الموت لذا جاءت اللفظة منفية بالأداة "لن" إلا أن هذا الإحساس ينتابه وهو الإحساس بالموت كما حاول التفكير وقد استطاع أن يجعل منه " باعثا لكم هائل من المشاعر الحزينة".(11)

يقول أيضا:

عبر التلال قوى تجوع، لكي ينام إلى المساء
عيش اشق من المنية وانتصار كالفناء(12)

أن الشاعر لا يثق في اللحظات، فالجوع بالنسبة غليه هو سبب عبوس هذه اللحظات وهو سبب الألم والكآبة، وبالتالي فقد عبرت الألفاظ البسيطة عن شدة توتر الشاعر الذي يعانيه، فاستطاع أن يولد بخياله الواسع دلالات جديدة لألفاظه.

من خلال هذه الأمثلة يتضح أن هذه القصيدة قد سيطرت عليها غنائية حزينة مملوءة بألفاظ الأسى والكآبة والخوف والموت، وأصبحت الألفاظ بالتالي "أشبه بالأفراد وما

تؤديه من المعاني أشبه ما يقوم به هؤلاء الأفراد من واجبات لأنفسهم ولغيرهم".[13] يقول السياب:

شق الرجال عن النساء، سلالتين من الأنام.
تتلاقيان مع الظلام، وتفصلان مع الشروق
زان وزانية، وبائعة وشار، والطعام.[14]

لقد أراد الشاعر أن يعري الحقيقة وينزع الأقنعة عن مشكلة الدعارة، فقد حاول أن ينزع كل بريق وطلاء من شأنه أن يستر هذه الفضيحة، لأن القبيح لا يمكن أن يكسى بثوب براق وخادع، وهو في كل الأحوال يصور لنا صورة بلده العراق خاصة والبلاد العربية بصفة عامة وما آلت إليه بعد أن أصبحت كالسلعة التي تباع وتشترى.

إن الشاعر لا يكتفي بهذه الصور، بل يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يصور لنا هذه المرآة التعسة وهي تشغل مصباحا لكنها لا تبصر نور هذا المصباح، رغم ذلك فهي تدفع ثمن هذا الزيت الذي تستأجره: يقول

يا ليتك المصباح يخفق ضوءه القلق الحزين.
في ليل مخدعك الطويل، وليت أنك تحرقين
دما يجف فتشربين.
سواه كالمصباح والزيت الذي تستأجرين[15]

إن قراءتنا المتأنية لهذه الأبيات والنظر في السياق، يجعلنا نفهم أن المقصود هنا هو الاستعمار، إن هذا الأخير هو الذي سلب خيرات البلاد واستغل إمكانياتها واستبد بها محاولا أن يمتص كل قطرة من دم الجياع، حتى تصبح تحت سيطرته وملك يديه، لقد جعلها تستأجر الزيت وهي تملكه في باطن أراضيها، فقد استطاع الشاعر بألفاظه البسيطة أن يعطي لنا صورة عن بلده وما آلت إليه.

2- التعابير:

ونعني بها تلك العبارات التي يستعملها الشاعر، فخروجنا من الألفاظ ودلالتها على المعاني العامة في القصيدة، يحيلنا إلى دراسة مجموعة هذه الألفاظ مع بعضها مشكلة تركيبا خاصا.

إن الوقوف عندها كظاهرة لغوية تدفعنا إلى النظر في ثقافة الشاعر من ناحية وإلى كيفية توظيفها من ناحية أخرى فـ" كل كلام فيه من أثر الثقافة نصيب، بل أن الرصيد

الثقافي هو قاعدة كل الكلام"[16] وشاعرنا دائم التعلق بالتراث، إلا أنه يطمح دائما إلى التجديد، وإدخال التنويع على ذلك التراث، وهو يلجا إليه، عندما" تغيم الرؤية في ذهنه ولا يتمثل موضوعه تمثلا كافيا، فيلجا إلى التراث يبتغي منه الوضوح للحدث المستجد".[17]

إن التعابير الجاهزة منقولة من تراث الشاعر، فهو يقتبس منها فيذكرها، إما بألفاظها أو يعدل فيها بعض التعديل، وهو يحاول في ذلك الاتصال مع القارئ عبر ثقافته، يقول:

وتلوب أغنية قديمة

في نفسها ، وصدى يوشوش" يا سليمة، سليمة!"

نامت عيون الناس آه... فمن لقبي كي ينيمه؟" [18]

لقد استعمل هنا تعبيرا هو أغنية شعبية، يعلق عليها قائلا: " أغنية شعبية، سليمة، سليمة، نامت عيون الناس كلبي (قلبي) ش ينيمه؟".[19]

إلا أن الشاعر قد أدخل تعديلا خفيفا جدا على صياغة هذه الأغنية الشعبية فقد أبقى على جذرها الأصلي الذي دلنا عليه، وقد أضفت على الأبيات جرسا حسيا شعوريا خاصا تحاول فيه أن تقترب من لغة الحياة، وميلها إلى مقاربة لهجة الحديث اليومي العادي.

إن لغة الشاعر قد ترعرعت داخل التراث، فقد حاول كغيره من الشعراء المحدثين استغلال الطاقات الإيحائية، والتي يمتلكها التراث الديني والأدبي، وقولبتها في قالب لغته الخاصة. لقد صاغ لنا السياب عدة قصص تراثية ودينية أخذها من مصدر مخصوص وضمنها كلامه وهذا الذي ضمنها إياه راجع إلى طبيعة الحياة التي يعيشها الشاعر:

فالمدينة الحديثة وآلاتها وضجيجها تجعل الصورة تتكشف عن الجريمة، يقول:

" قابيل" أخف دم الجريمة بالأزاهر والشفوف.

وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء.

عمياء كالخفاش في وضح النهار هي المدينة

والليل زاد لها عماها. [20]

إن الشاعر يصور هذا الخزي أقوى تصوير في تعبير تصرف فيه ليلبسه لباس المدينة المفضوحة، فلم تعد تلك الجريمة متخفية، بل انفضحت، فإذ كان قابيل قد أخفى دم أخيه وجريمة فإنه في تركيب الشاعر قد زاد الجريمة وضوحا بعد أن زينها بالأزاهر والعطور.

تظهر لناص وصورة أخرى وتركيب آخر في شكل يأجوج ومأجوج

سور كهذا حدثوها عنه في قصص الطفولة

يأجوج يغرز فيه من خنق أظافره الطويلة

ويعض جند له الأصم، وكف يأجوج الثقيلة

إلى قوله:

يسهب ذات ضحى ، ويقلع ذلك السور الكبير. (21)

إن يأجوج ومأجوج قد عتيا في الأرض وعاثا فيها فسادا، لذلك اسقط هذه الصورة على تلك المرآة، فالسور بالنسبة لها هو العقبات والجوع يسدان لها الطريق، فإذا وجد يأجوج ومأجوج من يقلع لهم ذلك السور، فإنها هي لم تجده لأن الطفل الذي حلمت به أن ينقذها شاب وما يزال سورها كما هو يقول:

الطفل شاب وسورها هي ما يزال كما رآه.

من قبل يأجوج المرايا توأم هو للسعير (22)

لقد صور لنا الشاعر هذه القصة أبلغ تصوير، فجعلها نتأثر بها ونفهم التجربة من خلالها ، لأنها تعرف معانيها والنهاية التي آل إليها، إلا انه أراد أن تكون التجربة مليئة بالمشاعر فغير في التركيب واستبدل المعاني في نسق خاص مكنه من تلوين حسه الشاعري ولغته العاطفية.

3-مظاهر من الانحراف الأسلوبي في القصيدة:

لقد كان لمصطلح الأسلوب تشكلات دلالية، ملائمة للظرف التاريخي وتلك التحولات الثقافة، فكان له نصيبيه من التعريفات المختلفة، وأصبحت قضيته موضع نقاش عالمي، وقد كان للجهد الذي قام به الباحثون تجاه الأسلوب في العصر الحديث أثره الكبير في الدرس اللغوي، وليس من المفيد أن نوغل في التفصيلات حول تلك الاختلافات في تحديد الأسلوب وما دار حولها من تفريعات إن ما يهمنا هو الوصول إلى تحديد المقصود بالمصطلح والموازنة بينه وبين مصطلح الأسلوبية.

إن الأسلوب عند الشائب هو "الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعنى، أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني"(23) والأسلوب هو أهم مستويات التحليل الدلالي يقوم أساسا على " رافعة أساسية

وهي استثمار لما تنبطن عليه اللغة من موارد ومعطيات إبداعية – انفعالية توصلا إلى صوغ فكرة ما، بأقصى ما يمكن من التأثير النفسي".[24]

أما "الأسلوبية" فقد ظهرت خلال القرن التاسع عشر عند الغربيين، إلا أنها لم تتبلور إلا خلال قرننا الحالي فهي: "التي تدرس كيفية ما يقال مستخدمة الوصف والتحليل في آن واحدة.[25]

ويتم الاهتمام بالنصوص الأدبية من خلال توظيف جديد للأدوات المستخدمة، فيكشف الأسلوب عن " تلك القدرات المنبثة في طاقات لغة الأدب"[26] وهذه الطاقات التي في العمل الأدبي تحتاجها الأسلوبية لتحقيق أهدافها فهي " تدرس المظهر والكيفية الذين ينتجان من اختبار المتكلم للعناصر اللغوية التي تحت تصرفه "[27] إذن يعتمد الأسلوب على اللغة خاصة فهي التي تساعده على فك الرموز وبالتالي تأخذ منه الأسلوبية هذه القدرة لأنها تمثل البعد اللساني لظاهرة الأسلوب، فجوهر الأثر الأدبي لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال صياغاته الإبلاغية[28]

إن الأسلوبية تدرس الكلمات من اختيار للألفاظ والتفنن في رسم الصور والتراكيب، فهي تبحث في" الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه عن غيره"[29] إلا أن تفرد الأسلوب للدلالة " على حالة فردية هو الذي يكشف لنا أسلوبية ذلك الفرد، في حين تمد الأسلوبية الأسلوب رواجه لأنها تحتوي أساسا عليه لفظا لا وظيفة ليكون الأسلوب" مهاد طبيعي للأسلوبية فهو يقوم على مبدأ الانتقاء والاختيار للمادة الأدائية التي تقوم الدراسات الأسلوبية بمهمة تحليلها من الناحية الأسلوبية".[30]

إن الأسلوب يحوي كثيرا من العناصر التي يصعب على الأسلوبية الإلمام بها وذلك مثل الحالات النفسية والوجدانية والتي بالضرورة تأثر في العمل الأدبي، فهو يملك القدرة للتأثير في الآخرين وهو هدف الأسلوب، إن الأسلوبية أو علم الأسلوب عند العلماء المحدثين تقابل البلاغة عند القدماء فهي تهتم بكل ما يلجأ إليه المتكلم من وسائل فنية وجمالية يهدف بها إلى إيجاد أهم الوسائل التي تدعو إلى الإقناع والتأثير في المتلقين، وبالتالي تتكون تلك الملكة لدى المتكلم وهي تلوين عناصره اللغوية تبعا لمناسبات القول وتحويلها إلى عناصر جمالية وفنية.

إن كل ما يقدم من توضيحات يصبح عديم الفائدة إذا لم تواكبه الدراسات التطبيقية والتي تقدمها النماذج، لأنها هي التي تكشف لنا ما في النص من مقومات جمالية تبرز لنا الظاهرة الأسلوبية في بعض ألوان الأداء، حتى نلمس حيوية مؤثرة توضح لنا تجربة الشاعر وتكشف لنا ذاتيته ووجدانه، فالشاعر :"يلجا في التعبير عن صورة وأخيلته إلى أسلوب المجازات والاستعارات رغبة منه في تجلية تلك الصور والأخيلة حتى تنبعث إلى القلوب وتحركها وإلى المشاعر فيثير ما كمن بها".[31]

فتكون هذه الأساليب انسب للغة الشعر من لغة النثر، فقد حلق شاعرنا السياب في سماء العواطف والأخيلة وانتزع من قريحته بعض الصور، زادت قصيدته طربا وتحريكا للمشاعر، فقد نوع شاعرنا في صوره جاعلا منها وسيلة ينقل بها أفكاره ويصيغ بها خياله فيما يسوق من عبارات وجمل لأن الأسلوب مجال ظهور شخصية الشاعر وفيه يستطيع أن يظهر طابعه الخاص به وهو في كل ذلك يخضع لمقتضيات الجنس الأدبي.

نحاول الآن أن نعرف كيف عبر الشاعر عن وجهه نظره في الأمور، والبحث عن أهم النقاط في تجاربه ، فنكشف من خلال ذلك عن الصور الفنية المجازية تلك الانحرافات التي تنشأ من عالم الشاعر المبدع إلا أنني سوف أقتصر على التشبيه والاستعارة بما أنهما أكثر المجازات استعمالا وأقواها تعبيرا.

فالتشبيه هو" أبرز أنواع التصوير اطرادا في كلام الناس عامة المسموع والمقروء على حد السواء. [32] كما يعرفه أبو هلال العسكري بقوله: " الوصف بان أحد الموصوفين ينوب مناب الأخر بأداة ناب منابه أم لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه".[33]

والتشبيه في قصيدة السياب كثير وقد ظهر في أغلب أبياتها، إذن فقد اهتم الشاعر به كغيره من الشعراء وهذا الاهتمام الكبير به وإجادة معانيه يهدف إلى نيل الريادة في الشعر، لأنه كان مقياسا من مقاييس الجودة والرداءة في القديم.

يقول السياب:

عمياء كالخفاش في وضع النهار،هي المدينة[34]

إن المدينة التي خيم عليها السكون بعد مجيء الليل أصبحت عمياء، وهو تركيز من الشاعر على الصور الحسية، إن الشاعر يقرن المدينة بالعمى– وهو بالطبع–لا يقصد إلى فقدان البصر، وإنما يقصد إلى خاصية هذه الحالة وهي عدم القدرة على تمييز الأشياء،

فدخول الاستعمار إلى (العراق) واستبداده جعل العراق مسلوبة الخيرات، لا تستطيع السيطرة في ذاتها، وهذا هو المعنى الذي يرده الشاعر لأننا لو ارتضينا المعنى الظاهري لضاعت الفكرة الأساسية، وهي أن العراق عاجزة على الحزم في أمورها والسبب هو بلا شك استبداد الحكم والحكام.

أننا نلحظ أن اختيار الشاعر لكلمة "عمياء" توضح أبعادا دلالية يضفيها السياق، وتركيب الكلام وعمق الأداء يمتد إلى آداه التشبيه التي استعملها الشاعر، والتي اتصلت بكلمة "خفاش" وأهمية هذه الأداة ينعكس على دلالة اللفظة التي بعدها. إن المدينة عمياء حتى وإن كان نهارا، مثل "الخفاش" لا يرى في النهار، وهي صورة حسية ناتجة في أحداث معنوية، وهي نسيان أنبائها لها، وابتعادهم عن خدمتها، وهذا هو الصراع بين قوة الحياة وقوة الموت، فكما تحفز النهار وهم بالشروق ليطرد الليل وظلامه وهي كناية عن الاستعمار وبطشه، ناب منابه العمى فالظلام قدر على هذه المدينة حتى لا تبصر النور.

إن التشبيه بالنسبة للشاعر اقرب للواقع وألصق بالعقل وهو الأنسب للتجربة الشعرية.

ثم يواصل السياب استثارة إحساسنا، وأن يعمق تلك الصور في وجداننا فيقول:

ويعود والغبش الحزين يرش بالطل المضاء.

سعف النخيل... يعود من سهر يئن ومن عياء

كالغيمة إعتصرت قواها في القفار، وترتجيها.

عبر التلال قوى تجوع لكي ينام إلى المساء[35]

إن السياب في هذه الأبيات قد استطاع أن يستحضر صورة هذا الرجل الذي يذهب مع البغايا تاركا زوجة وأبناء جائعين، وهو يستلهم من الطبيعة له صورة أخرى يقابلها له، فهو كالغيمة التي تستنفذ مطرها في القفار فلا يستفاد منها، إذن فهو يستنفذ قوته، ويأتي إلى هؤلاء تعبا ليستريح فرغم أن السحاب يدل على النماء والخصب، إلا أن الشاعر هنا وظفه كدليل على الشقاء والألم وقد اتخذ هذه الصورة رموزا للبحث عن كنه الأشياء، وهو دليل على وجود نبع الحياة في أعماق الشاعر.

يقول أيضا في موضوع آخر:

ليت النجوم تخر كالفحم المطفأ، والسماء

ركام قار أو رماد، والعواصف والسيول[36]

إن هذه الأبيات بما فيها من تشبيه، المكون من المشبه الذي هو النجوم والمشبه به وهو الفحم المطفأ، تشخص لنا إحساس الشاعر، فهو لا يستعمل التشبيه لمجرد الزينة أو المهارة فقط، وإنما يهدف من وراء ذلك إلى تقديم صور حسية تجسد إحساسه ويلون بها نفسه ويبعثها في حلة جديدة، إن الفحم المطفأ دليل على التشاؤم وإن يخر من السماء دليل على وقوع هذا الشؤم، وهو دائما في حركة مستمرة، وكأنه يريد أن يستبدل سكون المدينة بحركة دائمة ومستمرة، وهذا للبحث عن الدلالة بطرق مختلفة، وهو الذي يجنح إليه علم البيان الذي هو" علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه".(37)

إن الشاعر لم يكتف بالتشبيه كاملا بل عمد إلى حذف أحد عناصر وهي غالبا الأداة من أجل توكيد هذا التشبيه، يقول:

المال شيطان المدينة (38)

لقد شبه الشاعر المال بالشيطان، لأنه حذف أداة التشبيه وبهذه الحالة قد طابق المشبه المشبه به جملة وتفصيلا، وهذا التشبيه البليغ، أسمى درجات التشبيه، لأنه يسوي الركنين معا، وقد جاء هذا المشبه به مسندا خبرا للمبتدأ المال، وقد أضيف إلى المدينة.

2-الاستعـارة:

هي أسلوب من الكلام " يكون في اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في الأصل لعلاقة مشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي".(39)

وقد أوغل الشاعر في العمق بأن اعتمد على الاستعارة المكنية أكثر من التصريحية ومن شواهد ذلك قول الشاعر:

الليل يطبق مرة أخرى فتشربه المدينة (40)

فقد شبه الشاعر المدينة بإنسان يشرب إلا أنه حذف المشبه به وأتى بأحد لوازمه التي هي الشرب على سبيل الاستعارة المكنية.

فقد تم لهذه الصورة حسنها ووضوحها بسبب الاستعارة، وهذا الفعل تشرب هو فعل يعني القيام بأحد الوظائف الحيوية وهي الشرب، إلا أن الشاعر استعاره لإفادة معنى مجازي فأصبح يعني الملكية، أي أصبحت المدينة تملكه.

يقول أيضا:

النوم في إحداهن يرف كالطير السجين. (41)

في هذا البيت تداخل التشبيه والاستعارة، فقد شبه الشاعر النوم كالطائر، إلا أنه من المفروض أن يحذف المشبه به لان الاستعارة مكنية فقد أتى بأحد لوازم المشبه به،ولكن التشبيه المصاحب للاستعارة صرح بالمشبه به، وهذا التصريح الغرض منه تبيان الصورة، وكأن الشاعر أحس أن الكناية عن الشيء سوف تتعبه، فصرح مخرجا بذلك تأوهاته وأحاسيسه مجسدا إياها في استعاراته، وهو في كل هذا وذاك سيستعير من الطبيعة تصويره لأنها بالنسبة إليه هي مثله الأعلى التي يقدر به حقائق الأشياء وقيمتها.

يقول أيضا:

المال يهمس، أشتريك وأشتريك، فيشتريها (42)

إن الشاعر يتفنن في التعبير عن حالة هذه المرأة البائسة فوصفها بألوان مختلفة مناسبة للمشهد ومسايرة لحالتها المتدهورة، فقد جعل الشاعر لهذه المرأة حالة متردية إلى درجة أن أصبح المال يتحسر عليها كالإنسان، فهو يتكلم بصوت خافت وكأنه يتمتم مع نفسه" أشتريك" فأضطر الشاعر إلى تكرا هذا الفعل(أشتريك) مرتين، فقد استعار همس الإنسان للمال ليبين صفة الخبث في هذا الأخير، ثم يختم بأن هذا المال استطاع شراءها، لأنها سهلة المنال، إنها تعمل كذلك من أجل الحصول عليه.

من خلال ذلك يتبين أن الشاعر يعايش لحظات حزينة، فيجعلنا كأننا نجرب معه هذه اللحظات من خلال تجسيدها في شكل استعارات وهو في كل ذلك يحاول أن يكتم تأوهاته فجاءت استعاراته مكنية يقول في موضوع آخر.

واتى المشيب يلف روحك بالكآبة والضباب (43)

اشتمل هذا البيت على استعارتين مكنيتين تمثلتا في المشبه المشيب وهو يستعير في كل مرة من الإنسان لوازمه، في الأول استعار (الإتيان) وهو (المجيء) وفي الثاني استعار (اللف) ممثلة في فعل (يلف)، إنه يحاول أن يجعل هذه المرأة تستسلم لتيار النفس القوي، وهو في الوقت نفسه استسلام الشاعر، وبالتالي يصرفه عن أي تأمل في الحياة والبحث عن أسرار السعادة خارج حدود ذاته من خلال هذه الصور الإستعارية المكناة تتكشف لنا ذاتية الشاعر، فهو في صراع بين الرغبة في الانطواء على ذاته والرغبة في الخروج عن حدودها والبحث عن أسباب النجاة من الألم، إنه بأسلوبه الدرامي هذا يبين أنه متذبذب متردد بين الإقدام والإحجام.

هذا عن المحسنات المعنوية التي أكثر السياب من استعمالها في القصيدة أما عن المحسنات اللفظية والتي " يكون التحسين فيها راجعا إلى اللفظ أولا وبالذات ويتبعها تحسين في المعنى ثانيا وبالغرض ويتميز هذا النوع عن الأول بأنه لو غير أحد الفظين بما يرادفه لزال ذلك المحسن".(44)

ومن هذه المحسنات الطباق والجناس، اللذين أكثر السياب من استعمالها فاستغنينا بهما عن غيرها:

ومن أمثلة الطباق يقول الشاعر:

مترقبا ميلاد أفروديت ليلا أو نهارا.(45)

وقوله أيضا:

بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين(46)

وقوله:

والقمح ينضج في الحقول من الصباح إلى المساء(47)

لقد قابل الشاعر في هذه الأبيات، بين هذه الأشياء المتناقضة ففي الأول بين (الليل ≠ النهار)، وفي الثاني بين (الصباح ≠ المساء)،والثالث بين (اليمين≠ اليسار)، وهذه كلها طباقات موجبة، والشاعر يهدف من خلال هذه الأبيات إلى توسيع دائرة كلامه من حيث تحقيق شيء،ولعل هذا الطباق قد جاء سهلا على الشاعر لأن المتقابلات هنا مألوفة.

وفي مثال آخر يقول:

والأمهات يلدن والآباء للغد يبسمون (48)

ويقول:

ما ترتعيه رجاه من لحم الأجنة والعظام(49)

وقوله:

شق الرجال عن النساء، سلالتين من الأنام(50)

إذا كان الطباق في الأمثلة الأولى بين أشياء محسوسة ،فإن الطباق في هذه الأبيات ملموسة، فهي من الإنسان وبعض أعضائه، مثل (الأمهات، الآباء، لحم، عظام، رجال، نساء) وهذه الطباقات كلها موجبة.

الواضح أن السياب لا يتكلف في تركيب طباقاته، بل أن ذلك يأتي عفويا من قريحته وتجربته الشعرية تساعده في رسم تلك الصور.

أما الجناس فقد جاء ناقصا إلا أنه أفاد المعنى المنوط به وهو إضفاء الجرس الموسيقي على الأبيات المكونة منه يقول السياب:

يا ليت للموت عيونا من هباء في الهواء (51)

وقوله:

تقتات بالعسل النقي، وترتدي كسل الحرير (52)

جاء الجناس في هذين البيتين ممثلا في (هباء،هواء) وكذلك (عسل، كسل) فالقارئ يحس بنغمة مميزة عند النطق بهذه الكلمات، فالشاعر يحاول أن يعلن لنا أفكاره وأحاسيسه فهو يهدف إلى شحن الألفاظ بأكبر قدر من المعاني، وهو لم يكتف بما تحمله هذه الألفاظ من معاني حقيقية، بل يخرج إلى معاني أخرى مجازية يهدف بها إلى صوغ ذكرياته وتجاربه.

الخاتمة :

نستطيع استخلاص بعض النتائج التي توصلنا إليها في مايلي:

-حاولت القصيدة المزاوجة بين الصراحة ومكاشفة المعنى وهذا الذي دلت عليه الانزياحات المختلفة

– أن أسلوبه قد تغذى من ثقافة واسعة, مما جعله ينوع في مظاهر الانزياح الأسلوبي بين الاستعارات المختلفة والتشبيهات

– وقد استطاع الشاعر بناء قصيدته عن طريق المجاز، وكان شديد الحرص أن يكون هذا البناء متكاملا.

نلاحظ أن الأسلوب من خلال هذه الصور قد أوضح لنا نفسية الشاعر وفكره، وقد بينت لنا ذلك نوعية الكتاب

الهوامش :

(1) د/ محمد خيري الحلواني، أصول النحو العربي،مطبعة الشرق حلب1979 , ص76

(2) شلتاغ عبود، حركة الشعر الحر في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب1985, ص 136.

(3) د/ علي خدري، اللغة شخصية الأمة، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، ص84.

(4) عبد العزيز بوسهولي، الشعر التأويل، قراءة في شعر أدو نيس،إفريقيا الشرق،بيروت لبنان 1998, ص 120.

[5] عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب،دراسة منشورات اتحاد الكتاب العربي, دمشق سوريا 1980 ص12.

[6] بدر شاكر السياب, الديوان،المجلد الأول,دار العودة بيروت1971 , ص509.

[7] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز,مكتبة القاهرة الطبعة الاولى1969 ، ص60.

[8] الديوان، ص521.

[9] شكري محمد عياد، اللغة والإبداع،انرناسيونال براس,الطبعة الاولى1988 , ص131 .

[10] الديوان، ص 516.

[11] سعيد لراوي، ظاهرة الحزن في شعر السياب، ص 275.

[12] الديوان، ص 524.

[13] عبد الحميد حسين، الأصول الفنية للأدب، ص64.

[14] الديوان، ص 531.

[15] مصدر سابق، ص 538.

[16] محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص319.

[17] عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السياب، ص 183.

[18] الديوان، ص532،531.

[19] نفسه، ص 532.

[20] نفسه، ص 520.

[21] نفسه، ص530.

[22] نفسه، ص530.

[23] أحمد الشائب، الأسلوب، ص49.

[24] سمير أبو حمدان، الابلاغية في البلاغة العربية، ص25.

[25] محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص129.

[26] رجاء عيد، البحث الأسلوبي، معاصرة وتراث، ص

[27] عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب ،ص144.

[28] ينظر: Pierre Guiraud, la stylistique, p65.

[29] عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، ص140.

[30] رجاء عيد، البحث الأسلوبي، معاصرة وتراث، ص49.

[31] د/ممدوح عبد الرحمن، المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، ص137.

[32] محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب، ص142.

(33) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص239.
(34) الديوان، ص 509.
(35) نفسه، ص 524.
(36) نفسه، ص 534.
(37) د/سميح أبو مغلي، دروس في علوم العربية، ص118.
(38) الديوان، ص 515.
(39) الطرابلسي، خصائص الأسلوب، ص161.
(40) الديوان، ص 509.
(41) نفسه، ص 512.
(42) نفسه، ص 524.
(43) نفسه، ص 538.
(44) عبد الفتاح أحمد لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، ص 23.
(45) الديوان، ص 514.
(46) نفسه، ص 522.
(47) نفسه، ص 521.
(48) نفسه، ص 530.
(49) نفسه، ص 530.
(50) نفسه، ص531.
(51) نفسه، ص537.
(52) نفسه، ص 534.